

الجزء الخامس والمثرون

إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعَامِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَاءِ
قَالُوا آذْنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ
وَوَظَنُوا مَا لَهُمْ مِنْ حَيِّصٍ (٤٨) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

شرح المفردات

الساعة: يوم القيامة ، الأكام: واحدها كِمٌّ (بالكسر) : وعاء الثرة ؛ وقد يطلق على كل ظرف لمال أو غيره ، آذناك : أى أعلمناك ؛ يقال آذنه يؤاذه أى أعلمه كما قال :

آذنتنا بينها أسماء رب ثاوٍ يُمَلِّ منه الثواء

ضل عنهم : أى غاب وزال ، ظنوا : أى أيقنوا وعلموا ، يحيص : أى مهرب ؛ يقال حاص يحيص حيصا : إذا هرب .

المعنى الجملى

بعد أن هدد الكافرين بأن جزاء كل عامل سيصل إليه يوم القيامة كاملاً غير منقوص ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر — أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لا سبيل للخلق إلى معرفته ، فلا يعلمه إلا هو ، وأن علم الحوادث المقبلة في أوقاتها المعينة مما استأثر الله به ، فلا يعلم أحد متى تخرج الثمر من الأكمام ، ولا متى تحمل المرأة ولا متى تضع . ثم ذكر أنه سبحانه يوم القيامة ينادى المشركين تهكماً وتقريعاً لهم : أين شركائى الذين كنتم تزعمون ؟ فيجيبون : الآن لانشهد لأحد منهم بالشركة فى الألوهية ، وقد غابوا عنهم فلا يرجون منهم نفعاً ، ولا يفيدونهم خيراً ، وأيقنوا حينئذ أن لا مهرب لهم من العذاب .

روى أن المشركين قالوا يا محمد إن كنت نبياً فخبّرنا متى تقوم الساعة فنزلت الآية :

الإيضاح

(إليه يرد علم الساعة) أى إذا سئل عنها أحد ردّ علمها إليه تعالى ، فإنه لا يعلم متى قيامها سواء ، وقد جاء فى الحديث « أن جبريل عليه السلام سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » .

ونحو الآية قوله تعالى : « إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا » وقوله : « لَا يُحْكِمُهَا لِرِوْقَتِهَا إِلَّا هُوَ » .

وبعد أن ذكر أنه استأثر بعلم الساعة بين أنه اختص أيضاً بعلم الغيب ومعرفة ما سيحدث فى مستأنف الأزمنة فقال :

(وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى وما تبرز الثمرة من وعائها الذى هى معلقة به ، وما تحمل أنثى ولا تضع ولدها

إلا يعلم من الله ، فهو لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، ونحو الآية قوله : « يَـٰعِلْمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِمِ » .

وفي هذا دليل على أن المنجمين لا يمكنهم الجزم بشيء مما يقولون البتة ، وإنما غاية ادعاء ظن ضعيف قد يصيب وربما لا يصيب ، وعلم الله هو المقطوع به الذي لا يشركه فيه أحد .

ثم ذكر بعض ما يحدث في هذا اليوم فقال :

(ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد) أي واذكر أيها الرسول لقومك يوم ينادى سبحانه عباده المشركين على رؤوس الأشهاد تهكأ بهم واستهزاء بأمرهم — أين شركائي الذين عبدتموهم معي ؟ فيجيبون ويقولون : أعلناك أنه ليس أحد منا يشهد اليوم أن معك شريكا ، ونفى الشهادة يراد به التبرؤ منهم ، لأن الكفار يوم القيامة ينكرون عبادة غير الله كما حكى الله عنهم أنهم قالوا : « وآله رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ » .

والخلاصة — إن قوله آذناك إخبار بإعلام سابق علمه الله من أحوالهم يوم القيامة وأنهم لم يبقوا على الشرك ، وعلى تلك الشهادة كأنهم يقولون أنت أعلم به ثم يأخذون في الجواب .

(وفضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل) أي وغابت عنهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها في الدنيا ، فأخذ بها طريق غير طريقهم فلم تنفعهم ولم تدفع عنهم شيئا من عذاب الله الذي حل بهم .

(وظنوا ما لهم من محيص) أي وأيقنوا حينئذ أنه لا ملجأ لهم من عذاب الله .

لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ (٤٩)
وَأَنْ أَدْقَنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ
السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى ، فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى
الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (٥١) .

شرح المفردات

لايسأم : أى لا يمل ، والخير : المال والصحة والعزة والسلطان ، والشَّرُّ : الفقر
والمرض ونحوهما ، واليأس : انقطاع الرجاء من حصول الخير ، والقنوط : (بالفتح)
من اتصف بالقنوط (بالضم) وهو ظهور أثر اليأس على الإنسان من المذلة والانكسار ،
والرحمة هنا : الصحة وسعة العيش ، والضراء : المرض وضيق العيش ونحوهما ، هذا لى :
أى هذا أستحقه لما لى من الفضل والعمل ، والحسنى : الكرامة ، والغليظ هنا :
الكثير ، نأى بجانبه : أى تكبر واحتال ، وعريض : أى كثير مستمر ؛ يقولون
أطال فى الكلام ، وأعرض فى الدعاء : إذا أكثر .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه حال الكافرين فى الآخرة ، وذكر أنهم حينئذ يتبرءون
من الشركاء بعد أن كانوا معترفين بهم فى الدنيا — أردف ذلك بيان أن الإنسان
متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحسن بغير وقدرة انتفخت أوداجه وصغر
خديه ومشى الخيلاء ، وإن أصابته محنة وبلاء تطامن واستكان ويئس من الفرج ،
وهذا دليل على شدة حرصه على الجمع ، وشدة جزعه من الفقد ، إلى ما فيه من طيش
يتولد عنه إعجاب واستكباره حين النعمة ، وتطامنه حين زوالها ، وذلك مما يومئ

بشغله بالنعمة عن المنعم فى حالى وجودها وفقدها ، أما فى حال وجودها فواضح ،
وأما فى حال فقدها فلأن التضرع جزعا إنما كان على الفقد الدال على الشغل عن
المنعم بالنعمة .

الإيضاح

(لايسأم الإنسان من دعاء الخير) أى لا يمل الإنسان من دعائه ربه ومسألته
إياه أن يؤتية حجة وعافية وسعة فى الرزق ، فهوهما أوقى من المال فهو لا يفتنح ، وقد
جاء فى الأثر « منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب مال » وجاء أيضا « لو كان
لابن آدم واديان من ذهب لتمنى لهما ثالثا » .

(وإن مسه الشر فيئوس قنوط) أى وإن أصابه بؤس وضيق فى المال أو ابتلى
بمرض أنهك قواه واضمحل به جسمه - يئس من فضل الله ورحمته ، وظهر عليه
سيمي الذل والانكسار والخنوع والخضوع .

وخلاصة ذلك — إن الإنسان متبدل الأحوال ، متغير الأطوار ، إن أحس
بغير بطن وتمطم ، وإن شعر ببؤس ذل وخضع ، فهو شديد الحرص على الجمع ، شديد
الجزع على الفقد .

ثم ذكر حال هذا اليئوس القنوط فقال :

- (١) (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولنّ هذا لى) أى ولئن
كشفنا ما أصابه من سقم فى نفسه أو شدة وجهد فى معيشته ، فوهبنا له العافية بعد
السقم ، والغنى بعد الفقر - ليقولنّ هذا حقى قد وصل إلى ، لأنى أستوجبه بما حصل لى
من ضروب الفضائل وأعمال البر والقرب من الله ، لانتفضل منه على - أو لا يعلم أن
هذه الفضائل لو وجدت فإنما هى بفضل الله وإحسانه ، وهو لا يستحق على الله شيئا؟
- (٢) (وما أظن الساعة قائمة) أى وما أظن الساعة ستقوم ، فلا رجعة

لا حساب ولا عقاب على شيء من الآثام التي يقترفها الإنسان في دنياه ، ويجترمها مدى حياته الدنيوية .

وما تُنتج هذا إلا من شدة رغبته في الدنيا ، وعظيم نفرتة من الآخرة ، فهو حين نظر إلى أحوال الدنيا يقول إنها لى وأنا جدير بها لما لى من فضل به استحققتها ، وحين ينظر إلى أحوال الآخرة يقول وما أظن الساعة قائمة .

(٣) (ولئن رجعت إلى ربي إن لى عنده للحسنى) أى وإن الغالب على ظنى ن لارجمة ولا بعث ولا قيامة ، ولئن كان البعث حقا فإن لى عنده لكرامة فى الآخرة ، فإن حالها كحال الدنيا ، فما استحققتة من النعم فيها سيكون لى مثله فى الآخرة .

وبعد أن حكى عنهم هذه الأقوال ذكر أنه سيظهر لهم أن الأمر بعكس ما يظنون ، وبضد ما يعتقدون فقال :

(فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ) أى فلنخبين هؤلاء الكافرين يوم يرجعون إلينا بما عملوا من المعاصى ، واجترحوا من الآثام ، وما دسوا به أنفسهم من الخطايا ، ثم لنجازينهم عليها ، فيستبين لهم أنهم جديرون بالإهانة والاحتقار لا بالكرامة والإحسان ، ولنذيقنهم عذابا غليظا لا يمكنهم الفكاك منه وهو عذاب جهنم التى لاموت فيها ولا يجدون عنها حولا .

وبعد أن حكى أقوال الذى أنعم عليه بعد وقوعه فى الجهد الجهد — حكى فعاله فقال :

(وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه) أى وإذا نحن أنعمنا عليه فكشفنا عنه المرض وهبنا له صحة وعافية ورزقناه سعة العيش — أعرض عما دعواناه إليه من طاعتنا ، واستكبر عن الاتقياد لأمرنا .

ثم ذكر أنه حين الضراء يكون على عكس هذا فيتضرع ويتهلل إلى ربه فقال :
(وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض) أى وإذا أصابته شدة من فقر ومرض

ونحوهما أطلال الدعاء والتضرع إلى الله ، لعله يكشف عنه تلك الغمّة ، ويزيل عنه برحمته هاتيك ألمّة .

ونحو الآية قوله : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ » الآية .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِ ، مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ؟ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ، أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيَّةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ ، أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبروني ، أضل : أى أكثر ضلالا وبعدا عن الحق ، والشقاق الخلاف ، والآفاق : النواحي من مشارق الأرض ومغاربها وشمالها وجنوبها واحدها أفق (بضمين وبضم فسكون) وشهيد : أى شاهد على كل ما يفعله خلقه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، ومريّة : أى شك ، من لقاء ربهم : أى من البعث بعد المات ، محيط : أى عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

المعنى الجملى

بعد أن أوعد على الشرك وهدد ، وحذروا وأنذروا ، وذكر أن المشركين ينكرون الشرك يوم القيامة ويتبرهون من الشركاء ويظهرون النذل والخضوع لاستيلاء الخوف عليهم لما يرون من شديد الأحوال ، وأردف هذا بذكر طبيعة الإنسان وأنه متبدل

لا يثبت على حال واحدة ، فإن أحس القوة تكبر وتعظم ، وإن شعر بالضعف أظهر المسكنة والمذلة — أعقب ذلك بلفت أنظار الطاعنين في نبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلى التأمل والتفكير فيما بين أيديهم من الدلائل ليرعوا عما هم فيه من النقي والضلال ، ويقروا بها ليطاهر الأدلة عليها ، وعلى أن القرآن منزل من عند الله حقا ، وليعلموا أن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور .

الإيضاح

(قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به من أضل ممن هو في شقاق بعيد؟)
 أي قل أيها الرسول لهؤلاء المكذبين بالقرآن الذي جنتهم به من عند ربك :
 أخبروني أيها القوم إن كان هذا الذي أتم به تكذبون — من عند ربي ثم كفرتم به ، أفلا تكونون مفارقين للحق بعيدين من الصواب ؟

وقد كانوا كلما سمعوا القرآن أعرضوا عنه وبانغوا في النفرة منه ، حتى قالوا: قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ، فلفت أنظارهم إلى أنه يجب عليهم النظر والتأمل فيه ، فإن دل الدليل على صحته قبلوه ، وإن أرشد إلى فساد تركوه ، أما قبل ذلك فالإصرار على الإعراض والإنكار بعيدان عن الصواب وعما يحكم به العقل . فما أضلكم وأكثر عنادكم ومشافتكم للحق واتباعكم للهوى .

وخلاصة ذلك — قل لهم : من أشد ذهانا عن قصد السبيل ، وأسلك لغير طريق الصواب ، ممن هو في فراق لأمر الله وخلاف له ، وبعد عنه ؟

وبعد أن ذكر أدلة التوحيد والنبوة أجاب عن شبهات المشركين وتمويهات الضالين فقال :

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أي سنرى هؤلاء المشركين وقائنا بالبلاد المحيطة بمكة وبمكة بما أجزيناه على يدي نبينا وعلى يدي خلفائه وأصحابه من الفتح الدالة على قوة الإسلام وأهله ، ووهن الباطل وحزبه

حتى يعلموا حقيقة ما أوحينا به إليك وأنه الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وأن وعده صادق وأنه مظهر دينك على الأديان كلها .

والخلاصة — سنيسر لهم من الفتح ما لم يتيسر لأحد ممن قبلهم ، ونظهرهم على الجبارة والأكاسرة ، ونجري على أيديهم من الأمور الخارجة عن اليهود ، الخارقة للعادة ، فيستبين لهم أن هذا القرآن هو الحق ، ومن ثم نصر حامله ، وأظهرهم على أعدائهم في قليل من الزمان .

ثم ونجهم على إنكارهم تحقق هذه الإراءة وحصولها فقال :

(أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟) أى كفى بالله شهيدا على أفعال عباده وأقوالهم ، وهو يشهد بأن محمدا صادق فيما أخبر به عنه كما قال : « لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » الآية ، وقوله : « قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ؟ قُلِ اللَّهُ » .

وقصارى ذلك — ألم تكفهم هذه الدلائل الكثيرة التي أوضحها سبحانه في هذه السورة وفي كل سور القرآن ، وفيها البيان الكافي لإثبات وحدانية الله وتبزيه عن كل نقص ، وإثبات النبوة والبعث .

وبعد أن أقام الأدلة ، وأوضح الحجج حتى لم يبق بعدها مقال لمتعنت ولا جاحد — بين سبب عنادهم واستكبارهم فقال :

(ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم) أى إنهم في شك من البعث والجزاء ، واستبعادهم إحياء الموتى بعد تفرق أجزائهم ، وتبدد أعضائهم ، ومن ثم لا يلتفتون إلى النظر فيما ينفعهم عند لقائه كالتفكير في صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأن القرآن حق لا شك فيه .

ثم دفع مريةهم وشكهم في البعث وإعادة ما تفرق واختلط مما يتوهم منه عدم إمكان تمييزه فقال :

(ألا إنه بكل شيء محيط) أى إنه تعالى عليم بجمل الأشياء وتفاصيلها ، مقتدر عليها لا يفوته شيء منها ، فهو يعلم ما تفرق من أجزاء الأجسام ، ويقدر على إعادتها إلى أمكنتها ، ثم بعثها وحسابها ، لتستوفى جزاءها على ما قدمت من عمل .

بجمل ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

- (١) وصف الكتاب الكريم .
- (٢) إعراض المشركين عن تدبره .
- (٣) جزاء الكافرين وجزاء المؤمنين .
- (٤) إقامة الأدلة على الوحدانية .
- (٥) إنذار المشركين بأنه سيحل بهم ما حل بالأمم قبلهم .
- (٦) شهادة الأعضاء عند الحشر على أربابها .
- (٧) ما يفعله قرناء السوء من التضليل والصد عن سبيل الله .
- (٨) ما كان يفعله المشركون حين سماع القرآن .
- (٩) طلب المشركين إهانة من أضلّهم انتقاماً منهم .
- (١٠) ما يلقاه المؤمنون من الكرامة يوم العرض والحساب .
- (١١) إعادة الأدلة على الوحدانية .
- (١٢) القرآن هداية ورحمة .
- (١٣) إحاطة علم الله وعظيم قدرته .
- (١٤) من طبع الإنسان التكبر عند الرخاء والتضرع وقت الشدة .
- (١٥) آيات الله في الآفاق والأنفس الدالة على وحدانيته وقدرته .
- (١٦) شك المشركين في البعث والنشور ثم الرد عليهم .